سيرة مجاهد في طلب العلم ونشره

[حياة العلامة نعمة الله الجزائري أُنموذجاً]

(١٠٥٠- ١١١٢هـ) (١٦٤٠- ١٧٠٠م)

أ. د. عبد الرحمن كريم اللامي

جامعة بغداد/ كلية التربية – ابن رشد

التمهيد :

حديثي معكم هذه المرة يا زهور الأمل، وعطر الأماني، يا أنس الحاضر، وابطال المستقبل، يا سعادة البيوت، وبهجة النفوس، يا زينة الحياة الدنيا، عن قبس رائع من روائع مجدنا التليد المشرق، ومثل سامي تنجبه ارضنا العربية المعطاء، ارض المقدسات والمعجزات، ارض الانبياء والاولياء والصالحين، ارض الفرسان والعلماء والافاضل، في كل جزء منها، في جبالها ووديانها وسهولها وهضابها وشواطئها وجزرها وصحاريها وبواديها.... ارض التين والزيتون والنخيل والرمان... ارض الخيل والإبل والصقور والحمائم.... ارض النفط والغاز والمرجان واللؤلؤ والذهب... ارض الخير بكل الوانه واصنافه، والنعم التي لا تحصى، .... ارض البطولات النادرة في الرأي والشجاعة والحكمة والقيادة والزعامة والفروسية والعلم والادب والثقافة والفنون والمواهب الناصعة التي لا تنفد..

في أعالي شواطئ الخليج العربي الشمالية،... حيث تنساب ارض الرافدين انسياب مياه دجلة والفرات.. ينحدر شريان ماء عذب كبير يتألف من بداية تكوينه، من التقاء نهري دجلة والفرات في مجرى مائي واحد، اسمه شط العرب، بالقرب من منطقة تسمى القرنه، تبعد عن سواحل الخليج العربي الشمالية ١٨٠كم، وهذا الرقم يمثل طول هذا النهر الذي يبلغ عرضه من بداية تكوينه عند القرنه ٥٠٠م، وعند مصبه في الخليج العربي ٢٠٠٠م مما يزيد من رونق وجمال شط العرب انتشار بساتين النخيل والفواكه والسواقي والنهيرات على ضفتيه، والمستنقعات والاهوار في شماله عند نهاية سهل الرافدين الرسوبي، وتتناثر في مياه شط العرب والمستنقعات القريبة منه جزر كثيرة. هي قطع من

الارض صغيرة المساحة احاطت بها المياه من جميع جهاتها وترتفع قليلاً عن مستوى سطح الماء وقد تكونت منذ عشرات السنين بفضل تجمع ترسبات الاطيان التي تحملها المياه.... وقد سكن في هذه الجزر من عرب جنوب العراق والجزيرة العربية اعداد كبيرة من الناس فأنشأوا، القرى والمدن التي كان سكانها يعيشون على زراعة الرز وتربية الجاموس وصيد السمك والطيور البرية، ويستخدمون الزوارق والسفن في التنقل والسفر وحمل الاثاث والاتصال فيما بينهم.... وكانت تفاصيل نشاطات الانسان قبل اكتشاف الكهرباء والنفط والمخترعات العلمية الأخرى قاسية وصعبة في مختلف بقاع الأرض.. ولكن بمثابرة الانسان واصراره على العيش والتطور استطاع أن يبني حضارة عظيمة تزدهر وتتقدم مع تقدم الايام فلمس نتائجها في حياتنا المعاصرة المرفهة السهلة [١].

وهكذا وجدنا اخواننا في شواطئ وجزر جنوب العراق يصارعون قساوة الظروف ويثبتون في ارضهم ويقيمون فيها حضارة تنسجم مع متطلبات حياتهم وزمانهم فانشاءوا المساكن والاسواق والمساجد والمدارس والمزارع وبعض الصناعات.. ومن مساجد ومدارس تلك الجزر والشواطئ كان عدد من الشيوخ والاساتذة يقومون بتدريس الفتيان والفتيات من عمر الطفولة والصبا حتى عمر الشباب والكهولة مختلف العلوم الشائعه في ذلك العصر مثل علوم اللغة العربية والشريعة الاسلامية والفقه والتفسير والتاريخ والجغرافية والفلسفة والطب.

كان طالب العلم يبذل جهوداً كبيرة ويتحمل مشاق ومصاعب تفوق التصور كي يستكمل دراسته.. وكذلك كان المعلم والاستاذ والشيخ لا يتأخر عن تقديم الجهود المخلصة لتعليم التلاميذ وطلبة العلم افراداً وجماعات على مدار السنة، تطبيقاً لأمر الله سبحانه وتعالى ((طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وأن العالم والمتعلم شريكان في الآخر)) وغيرها من الفضائل والحسنات التي وردت في القرآن الكريم وعلى لسان رسوله الكريم التي تدعو إلى المثابرة والحرص على طلب العلم والمعارف.

وكانت الرحلة والسفرة السياحية في طلب العلم من الأمور الشائعة والمعروفة فقد يتنقل طالب العلم بين عدة محلات وقرى ومدن ومواقع حسب توفر المعلمين والاساتذة ومستويات المدارس والمساجد.. ولنا في سيرة الشيخ العلامة نعمة الله بن عبد الله الجزائري (١٠٥٠- ١١١٢هـ) الذاتية مثال يحتذى في طلب العلم والسعي المتواصل

لاكتساب الخبرة والثقافة مهما كانت الصعوبات والعقبات التي تواجه طالب المعرفة، ومهما كانت مكانته الاجتماعية والمالية والسياسية.

ولادته ونشأه ورحلته في طلب العلم:

ولد شيخنا العلامة نعمة الله الجزائري عام ١٠٥٠هـ- ١٦٤٠م، من اسرة عربية كريمة، في قرية الصباغية في جزيرة من جزر البطائح المتناثرة شمال شط العرب، شرقي نهر دجلة المطلة على فرع صغير ينحدر من الضفة اليسرى لجنوب نهر دجلة، نحو الشرق في وسط بطائح جنوب العراق يسمى الكحلاء، وكانت اسرته تمتهن زراعة الرز وتربية الجاموس وصيد السمك والطيور البرية، وكان في القرية مسجد ومكتب لتعليم الصبيان القراءة والكتابة واشياء من فنون المعرفة، لقد تحمل المشقات في سبيل تحصيل العلوم ودراسة الفنون لاسيما في اوائل شبابه، وانكب على الاشتغال بالعلم وجد في تحصيله، حتى أنه لم يكن له القدرة احياناً على شراء دهن السراج للمطالعة الليلية، ومهما بلغت به الحال من الشدة والقساوة نراه جاداً في كتابته، دائباً في عمله، مستمراً في خطته، ساعياً في تحصيل ضالته المنشودة وبغيته المأمولة، لم يظهر فتور في همته العالية، رغم تلك الرزايا والمحن والظروف الصعبة، فحضر منذ نعومة اظفار اندية العلم وحلقات التدريس ومجالس الاساتذة، جد واجتهد حتى بلغ الذروة العليا والدرجة القصوى وصار من اكابر كتاب عصره وعلماء زمانه.

كان والده من وجوه القرية البارزين وقد حصل على تعليم بسيط جعله يعرف فضائل العلم ويتحسس فوائده.. وبدأت رحلة شيخنا نعمة الله الجزائري في طلب الدراسة، بعد السنة الخامسة من عمره، على اثر حديث تشويق وترغيب استمر معه عدة ايام، كان يقوم به والده معه لكي يذهب إلى مكتب القرية لتعلم القراءة والكتابة كان الطفل شغوفاً باللعب واللهو الذي يتداوله اطفال القرية من اصحابه، وفي صباح احد الايام امسك به ابوه وقال له: تمضي معي إلى المعلم لكي تتعلم القراءة والكتابة وتكون طفلاً مهذباً ومحبوباً، فيبكي الطفل ويتململ ويحاول عدم الاستجابة لطلب ابيه، فقال له ابوه ان اصحابك هؤلاء الاطفال سيذهبون إلى المكتب ويتعلمون مثلك، وهكذا بين الشدة والاقناع مضى به ابوه إلى معلم المكتب، وطلب منه أن يعلمه اسوة بالاخرين من طلابه، فبدأ معهم من حروف الهجاء، وفي الايام الأولى من دخوله المكتب كان يتضجر ويشكو إلى أمه صعوبة الحياة

الجديدة، ولكن والده كان يشدد عليه حتى شعر أن لا مهرب له من الدراسة فاخذ يدرس باخلاص [٢].

ويواظب على اداء واجباته المدرسية والدراسية، فختم القرآن الكريم في السنة الأولى، وحفظ الواناً من الشعر والنثر وفي السنة الثانية، بدأ دراسة مبادئ اولية من قواعد اللغة العربية من كتاب الامثلة وغيره، وبدأ يدرس فصولاً من السيرة النبوية الشريفة، وكان احد اساتذته أعمى يقوده بالعصا ويبالغ في خدمته اعتزازاً واحتراماً للعلم، وفي السنة الثالثة انتقل إلى مكتب آخر في قرية أخرى ليدرس الصرف والاعلال والابدال والادغام في كتاب الكافية، وكان استاذه يستعين به بعد الدرس على قطع الحشيش والاعشاب من بستانه لكي يعلف بها حيواناته، ويتلو عليه استاذه صيغ الصرف احياناً وهو يقطع الحشيش ثم يقوم بشد الحشيش حزمة كبيرة ويحملها مع الشيخ إلى بيته، أو يقوم بقطع ارواق التوت ليقدمها غذاء إلى ديدان القز التي تدر على ذلك الشيخ بالحرير، وفي السنة الدراسية الرابعة، رحل إلى قرية رابعة فيها شيخ فاضل يستكمل فيها دراسته على يديه في مسجد القرية، وفي أحد الايام يدخل رجل تعلوه عمامه كبيرة على رأسه كأنها قبة صغيرة، يرى فيها الناس انه صاحب علم ودراسة فتقدم منه الصبي وسأله عن صيغة من صيغ الصرف فلم يرد الجواب، فقال له الصبي إذا كنت لا تعرف هذه الصيغة فكيف وضعت على رأسك هذه العمامة الكبيرة فضحك الحاضرون وقام الرجل من ساعته [٣]، فدفعت هذه الحادثة الصبي إلى اتقان صيغ الصرف وقواعده، على الرغم من ندمه على تجاوزه على ذلك الرجل الذي يكبره، وفي السنة الخامسة من دراسته تنقل بين قريتي عنتر وبني اسد تتلمذ على بعض المعلمين فيها، وفي سن العاشرة ذهب مع اخ له يكبره برفقة والدهما إلى مدينة الحويزة عاصمة إحدى الإمارات العربية في ذلك الوقت، وقد ركبوا سفينة صغيرة سلكت بهم مياه المستنقعات خلال غابات القصب والبردي ونباتات الاهوار الكثيفة، وبعد مشقة استمرت ثلاث ايام وصلوا إلى مدينة الحويزة، وكانت هذه المدينة احدى المراكز العلمية والثقافية في جنوب شرق العراق، وقد انشأت فيها عشرات من المدارس والمساجد والمكتبات وسكن فيها عشرات من العلماء والادباء والشيوخ والمعلمين فاستضافهم فيها رجل من اكابرها اكثر من عام، فتتلمذ على عدد من افاضلها ومعلميها مختلف الدروس وخاصة في قواعد اللغة العربية ونحوها، فقرأ في كتاب شرح

الجامي وشرح الشافية والفية ابن مالك... الخ. وربما ساعد عدداً من اساتذته وشيوخه في بناء بيوتهم أو حمل معهم حاجاتهم من السوق وغير ذلك، وكان يجد متعة في خدمة شيوخه واساتذته لبركات انفاسهم الشريفة في الدرس، وكان يمكث مع زملائه في المدرسة بعد انصراف المعلمين والشيوخ عنها للمذاكرة ساعات طوال، فيفوته الغداء فيبقى جائعاً إلى وقت العشاء، وقد يتناول القشور أو ما تبقى من فتات الطعان ليسد رمقه، وفي الليالي المقمرة يقرأ على ضوء القمر، فاذا جاءت الليالي السود يذاكر على ظهر قلبه حتى لا ينسى، وبعد الانتهاء من هذه المرحلة الدراسية يغادر إلى اسرته، ويمكث بضعة اسابيع، ويسمع من احد ضيوفهم عن مدارس البصرة وعلمائها وطلابها ورعاية اميرها للعلماء والطلاب، فتثيره تلك الاخبار والمعلومات الثقافية، فيقرر هو واخيه السفر إلى البصرة دون علم والدهما خشية ان يمنعهما من السفر البعيد، وفي البصرة يستضيفهما احد افاضلها مدة سنة، وياخذان في التنقل بين مدارسها ومعلميها واساتذتها والحلقات الدراسية التي كانت تعقد في مساجدها وكانت البصرة في ذلك الوقت من أهم المراكز الثقافية والعلمية والادبية في الخليج العربي وجنوب العراق، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء والادباء، ولكن هذه البيئة الغنية في علمها وثقافتها لم تشبع نهم الصبي العلمي والثقافي، فقرر الارتحال إلى مدينة شيراز في الجهة الشرقية من الخليج العربي، التي تبعد قليلاً عن الشواطئ، وكانت هذه المدينة من المراكز الثقافية والتجارية في الخليج العربي في ذلك الوقت ايضاً، وفيها عدد من المدارس والحلقات الدراسية في المساجد تدرس اللغة العربية وعلوم الشريعة والادب واللغة، وكان معظم اساتذتها وشيوخها من عرب الخليج العربي وجنوب العراق، فتسمع بالقاب الكعبي والتميمي والجزائري والمدني والبحراني والاحسائي والقطيفي والبصري، فركب سفينة من البصرة ومضى إلى بندر حماد وهو ميناء شيراز على شاطى الخليج ومن هناك استأجر دابة حملته مع قافلة إلى شيراز فقطع تلك الطريق المتعبة وعمره ١٢ سنة، فحط رحله في مدرسة المنصورية وكانت أحدى المدارس المشهورة في تلك المدينة وفيها غرف اقامة وسكن لطلبة العلوم والاساتذة الغرباء، إلى جانب غرف الدراسة، وقد قام ببناء هذه المدرسة العلامة غياث الدين بن معصوم احد اسلاف الاديب والمفكر الكبير علي بن معصوم المدني صاحب كتاب (سلافة العصر في محاسن اهل الشعر)، عين متولي المدرسة سكننا له في أحد الغرف مع

مجموعة من التلاميذ، وخصص له معاشاً يسيراً لا يكفي لمتطلباته الدراسة والمعاشية، فأخذ يكتب ويستنسخ للآخرين باجر، يعني اخذ يمتهن مهنة الوراقة، اضافة إلى كونه طالب علم، ليلبي حاجاته المعاشية والدراسية، ويتكلم عن بعض صور حياته في شيراز التي مكث فيها تسع سنين، تنقل فيها بين طالب علم ومعلم وورّاق، كل ذلك من أجل ان يستكمل تحصيله العلمي والادبي فيقول: (وكان حالي في وقت الصيف الحار أن طلبة العلم يصعدون إلى سطح المدرسة، وانا اغلق باب الحجرة، واسرع في المطالعة والحواشي وتصحيح الدرس إلى أن ينادي المؤذن لصلاة الفجر، وبعد صلاة الفجر اضع رأسي على الكتاب لانام قليلاً، فإذا طلع الصبح شرعت في الدراسة إلى وقت الظهر، فقرأت علوم العربية عند رجل فاضل من أهل بغداد والأصول عند رجل محقق من اهل الاحساء، وعلم القراءة عن رجل فاضل من اهل البحرين، وكنا جماعة نقرأ عن الشيخ الجليل جعفر البحراني وكان يشجعنا على الدرس، وعلى فهم معناه من المطالعة، ويقول لنا أن الاستاذ انما هو للتيمن والتبرك، وإلا ففهم الدرس وتحقيق معناه إنما هو من مطالعة التلميذ)[٤] وبعد صلاة الظهر أسعى لتحضير دروس اليوم الآخر، فربما أخذت قطعة خبز من دكان الخباز في طريقي فاكلها وانا امشي... وفي اغلب الاوقات ما كان يحصل فابقى إلى الليل، وقد أتت علي ايام لا اقوى على شراء الطعام ودهن السراج للمطالعة، فكنت أذا اضاء القمر فتحت كتابي للمطالعة، وادير في جلوسي مع دوران ضوء القمر، وبقيت في شيراز تسع سنوات تقريباً اصابني فيها من الجوع والتعب ما لا يعلم به إلا الله...)[٥].

وفي سن الخامسة عشرة بدأ باكورة تأليفه فألف في النحو (مفتاح اللبيب في شرح التهذيب) ليستمر بعدها في التأليف بأنواع فنون المعرفة والثقافة... ومن لطيف ما عرض له وهو في عمر التحصيل في ديار الغربة: ان أحد شيوخه في النحو من البحرين انفرد به ذات يوم بضع دقائق فأمسك بأذنه وعركها عركاً شديداً وقال: (ايها الولد اياك ان تجعل نفسك شيخاً للقبيلة، وتحب الرئاسة فيضع بها وقتك..) وفي مرة أخرى، تأخر فيها عن حضور درس ذلك الشيخ بسبب انشغاله بمآتم احد اصدقائه، فلما جاء في اليوم التالي، امتنع الشيخ عن تدريسه، لأنه فرط في حضور الدرس، وقال له يجب أن تحضر الدرس، ثم بعد ذلك تذهب إلى عزاء صديقك، ثم أخذ عليه عهداً أن لا ينقطع عن الدرس مهما كانت الاحوال، حتى تنتهي مفردات المنهج الدراسي، وكان ذلك الاستاذ يعاقب تلاميذه إذا

قصر احدهم في حضوره أو في تحضيره ومن صور عقوباته: (ان الطالب المقصر يحمل الطالب المتفوق على ظهره، ويتردد بين مكانين عدة مرات، ويذكر أن من تقاليد اولائك الاساتذة انهم لا يعنون كثيراً بالكتاب المؤلف حديثاً ما دام مؤلفه حياً، فإذا مات المؤلف عنوا بكتابه دراسة وشرحاً، فقد سأل احد اساتذته مرة عن كتاب تفسير نور الثقلين للمؤلف/ ابن جمعة البحراني، فقال الاستاذ مادام الشيخ المؤلف حياً فلا يساوي كتابه عندي شيء، فاذا مات انا أول من يكتبه بماء الذهب.. وأنشد:

ترى الفتى ينكر فضل الفتى لؤما وبخلاً فإذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة يكتبها عنه بما الذهب

ومن صور المشقة التي واجهته وهو في مهمته العلمية، أنه كان يتنقل في الليل بين معارفة واصدقائه لسد النقص الحاصل عنده في الكتب والمطالعة على سراجاتهم، أو القاء الدروس في المساجد ودور العلم، وبين مسكنه وهذه الاماكن التي يتردد عليها مسافات وازقة وميادين واسواق يقطعها مشياً على الاقدام، في ظلام الليل الدامس وليس معه غير العصا والكتب، فاذا اقترب من باب دار أو دكان اخذ يردد الاشعار والاناشيد بصوت عال، حتى لا تظن كلاب الحراسة انه سارق بل انه عابر سبيل، وبهذه الطريقة يخلص من مهاجمة الكلاب له وهو في عودته إلى مسكنه، وكان يؤثر الوحدة والانفراد لكي يتفرغ إلى الدرس والبحث، ومع ما كان عليه من الجد والاجتهاد، فقد كان كثيراً ما يخرج للنزه في البساتين والبراري في مواسم الربيع مع الاصحاب والاعلام، ولكن الاشتغال بالكتب لا يفرط به... وفي سن العشرين يعود إلى وطنه في قرية الصباغية، ويستقبل استقبالاً رائعاً من قبل اسرته وعشيرته واصدقائه، لأنه صبر على مشقة طلب العلم والثقافة والغربة عن الاهل والوطن فصارت له مكانه اجتماعية مرموقة، يرجع إليه في أمور الدين والدنيا، ولكن هذه المكانة الرفيعة لم تحمله على الكسل والاهمال في اداء واجباته بل زادت من همته وحماسته.. فاخذ يتنقل بين القرى والقصبات في منطقة البطائح والجزائر، يوعظ ويعلم ويتلقى علم، ومعه كتبه وقراطيسه يشتغل فيها اثناء سفره اينما حل ضيفاً، جرياً على عادة السلف الصالح من علماء العرب والمسلمين وكبار الادباء... وكان يخرج كتبه ليقرأ فيها وهو على ظهر الدابة، أو في الزروق والسفينة أو في اماكن الضيافة في حله وترحاله، حتى لمع اسمه وطار ذكره بين الامراء والشيوخ

والوجهاء وعامة الناس، وكان مجلسه مجلس علم وادب وثقافة، واستاذ ومعلم وطالب علم اينما حل، واتسعت دائرة حركاته في العراق والخليج العربي والجزيرة العربية، وراسله عدد من امراء وحكام عصره ودعوه للاستقرار قريباً منهم، للانتفاع بمعاشرته والاستفادة من خبرته والتتلمذ عليه، من اشهرهم الشاعر والاديب الامير علي بن خلف الحويزي (١٠١٨- ١٠٨٨هـ) امير الحويزة وقد جاء في احدى رسائله له هذه الابيات يستحثه فيها للقدوم عليه:

يا اخا بشرنا تاخرت عنا ... قد اسانا ببعد عهدك ظنا
كم تمنيت لي صديقاً صدوقا ... فاذا انت ذلك المتمنى
فبغصن الصبا لما تثنى ... وبعهد الصبى وان بان عنا
كن جوابي لكي ترد شبابي ... لا تقل للرسول كان وكنا (٦)

واخيراً قرر الاستقرار في مدينة تستر التباعة إلى امارة الحويزة، واتخذها دار وطن فتولى، فيها مشيخة الاسلام وامامه الجمعة والجماعة وسائر المناصب الشرعية، وقام ببناء المساجد والمدارس في المدينة المذكورة، ولم تمض مدة حتى صارت مدينة تستر تقصد لتحصيل العلم، بجهود هذا الاديب الكبير وهو مواظب على التدريس والتعليم، حتى تكمل من تلامذته جماعة وصلوا إلى أعلى مقام من الفضل والعلم، وهكذا استمر يواصل اداء رسالته حتى وفاته عام ١١١٢هـ- ١٧٠٠م.

يعد الاديب نعمة الله الجزائري من كبار الكتاب في عصره، لما تميز به من كثرة المؤلفات والدراسات وتنوع الابحاث والموضوعات التي طرقها واستوعب عناصرها، واستقصى دقائقها، فلا يقف عند موضوع ذي بال تناوله في الكتابة إلا وضح معالمه بصورة وافية وعلى نحو يفيد القارئ، وهو في اسلوبه قد ابتعد كل البعد عن التصنيع والزينة اللفظية، فغايته بسط افكاره بالفاظ واضحة دون كلفة أو تنميق، ولم يشغل ذهنه بسجع أو ازدواج أو تشبيه أو استعارة، وإنما كان يستعين بالترسل لتوضيح افكاره بلغة لينة فصيحة ليس فيها توعر أو التواء، فاذا تجاوزنا ابحاثه العلمية وهي الاكثر، وتصفحنا مؤلفاته الأخرى لوجدناها تصب في ثلاثة مجاري هي:

السلوك الرفيع والاخلاق الفاضلة:

رصد الكاتب الظواهر السيئة في المجتمع، فخصص قسماً من ثقافة ومؤلفاته في تربية الانسان وتقويم اخلاقه، فعالج عدداً من الموضوعات كالحسد والنميمة والتبختر والفخر والظلم والكذب وغيرها، وحرص على نشر الفضيلة والسلوك السليم، كالعدل والصبر والصدق وغيرها من الفضائل فسطر اراءه على نحو مقالات مثيرة للمشاعر الانسانية فمن ذلك ما كتبه في الحسد: ((اعلم ان الحسد من اعضل الادواء واكبر المعاصي وافسدها للقلب، وكفى به شر أنه اول خطيئة عصي الله تعالى بها، وذلك هو حسد ابليس لأبينا آدم عليه السلام فاستمرت تلك البلية إلى يوم القيامة، وقد أمر الله نبيه بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ، بعد أن استعاذ من الشيطان والساحر فانزله منزلتها، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب).... فأن ميزان الحاسد ابدا خفيف يثقل ميزان المحسود، والرزق مقسوم فماذا ينفع الحسد الحاسد، والحسد يهيج خمسة اشياء احدهما: افساد الطاعات، لما عرف من أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والثاني: فعل المعاصي والشرور، والثالث : التعب والغم من غير فائدة بل مع كل وزر، والرابع: الحرمان والخذلان فلا يكد يظفر بمراد ولا ينصر على عدو وكيف يظفر بمراده، ومراده زوال نعم الله عن عباده، وكيف ينصر على اعدائه وهم عباد الله الذين ساق اليهم النعم لتأهلهم لها، فأعلم قد بقي هنا امور. الأول: حقيقة الحسد: هو انبعاث القوة الشهوية إلى تمني ما للغير أو حاله التي هو عليها وزوالها عن ذلك الغير وهو مستلزم الحركة القوة الغضبية ولذلك قيل: (الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له)، وقد اتفق العقلاء على أن الحسد مع أنه رذيلة عظيمة للنفس فهو من الاسباب العظيمة لخراب العالم إذا كان الحاسد كثيراً ما يكون حركاته وسيعة في اهلاك ارباب الفضائل واهل الشرف والاموال الذين تقوم بجهودهم عمارة الارض، إذ لا يتعلق الحسد بغيرهم من أهل الحسنة والفقر.

واما الغبطة المحمودة فهي انك لا تتمنى زوال تلك النعمة عنه ولكنك تشتهي لنفسك مثلها وكما قيل (وإنما نغبطكم يا اهل العراق على الارز)... [٧].

وقيل في الصبر [٨]: (اعلم وفقك الله تعالى أن القرآن والحديث قد اكثر من مدحه، وحتى انه سبحانه وصف الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين

موضعاً، واضاف اكثر الخيرات والدرجات إلى صبر وجعلها ثمرة له فقال ﷻ : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ .

واعلم أن محامد الاخلاق كلها ترجع إلى صبر، ولكن له اسم بكل واحد من موارده، فأن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة، وأن كان على احتمال مكروه اختلف اساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي عليه الصبر، فأن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ويضاده الجزع، وأن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ويضاده البطر، وأن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن، وان كان كظم الغيظ والغضب سمي حلما ويضاده السفه، وان كان في نائبة في نوائب الزمان سمي سعة الصدر ويضده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وان كان في اخفاء كلام سمي كتمان السر، وأن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص، وان كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة يضاده الشره...)).

الكتابة عن الطبيعة والحيوان والإنسان:

شغف بعجائب الطبيعة بما فيها من ارض وفضاء ورياح واجرام وكواكب وشمس وقمر، فوصفها وصفاً أدبياً يعتمد على القرآن الكريم واقوال الرسول ﷺ والأئمة والصحابة ثم الحكماء والفلاسفة، وتناول غرائز الانسان والحيوان بأسلوب لطيف. فذكر نزعات كل منها وميوله في الخير والشر وحب البقاء والتكاثر وغيرها.

ومن ذلك قوله في تربية الهرة أولادها: ((... فإذا وضعت اشتدت بها الحراسة للخوف عليهم- يعني أولادها فشرعت تنقلهم من مكان إلى مكان ماداموا لم يفتحوا اعينهم، فإذا فتحوا وامنوا من الشر شرعت في تعليمهم انواع العلوم وتربيتهم الطف تربية، فأول ما تعلمهم الحذر من الناس إذا لم تكن من أهل البيت بل كانت ضيفاً على أهله، فمن رأته انهزمت من بين يديه مع انها ما كانت تعتاد الهزيمة وإنما ذلك تعليماً لفراخها خوفاً عليهم من اخذ الصبيان فيتقنون علم الحذر والفرار من الناس، وفي المثل احذر من الغراب، أنه قال لولده: إذا رأيت من اخذ بيده حجراً فطر من بين يديه، فقال: يا ابتا اطير عنه قبل ان ينحني لاخذ الحجر، ثم تعلم اولادها علم السؤال والطلب وهو علم عريض طويل.

حدثني شيخنا صاحب التفسير الموسوم بنور الثقلين في شيراز في منزله الواقع بجوار المسجد الجامع، وأن علم السؤال والطلب يشتمل على اثني عشر مقاماً يشمل كل منها على اثني عشر شعبة ثم فصل المقامات والشعب تفصيلاً غريباً موافقاً للواقع والوجدان، ولو أن اهل السؤال اطلعوا على بعض المقامات وعرفوا شيئاً من تلك الشعب لاستغنوا في زمن قليل.

والحاصل انها تأتي بافراخها وتبسط يديها على الارض مثل الاسد، لانها خلقت من عطسته في السفينة لما كثر الفأر وافسد حبال السفينة، يكون جلوسها بناحية عن الاكلين لذلك الطعام، فترقق قلوبهم على اعطائها اولاً بالسكوت، وذلك ان السكوت تارة يرقق قلوب الناس وأخرى يحملهم على قضاء الحاجة تنفرا واستكراهاً من جلوسه، وهذا السكوت من اعظم الاسباب لقضاء الحوائج... فإذا قضت الهرة حاجتها بالجلوس المشتمل على الادب والسكوت فذاك المطلوب، وأن رأت التغافل عنها تدرجت على اخبارهم والطلب بالصياح ميو ميو قليلاً، ثم تسكت ثم تصوت، فأن استمرت على التغافل عنها تدرجت على العارفين بأدب السؤال من المكادى، وان استمر منهم الاعراض عنها قدمت على السرقة واحالت الحيل فيه تقع على مطلوبها، فإذا سرقت شيئاً امعنت في الهرب لانها عارفة بانه حرام وتعاقب عليه. كان في بلادنا رجل من الافاضل فسأله رجل يوماً عن الحلال والحرام وطال الكلام حتى قال للسائل: أن الهرة تفرق بين الحلال والحرام وانتم لا تميزون بينهما، فقال له السائل: وكيف هو؟ فقال: انها اذا اعطيت قطعة من الخبز اكلتها في مكانها، واذا اخذتها سرقة هربت بها كما يهرب السارق.

اقول:ثم اذا لم تمكنها الفرصة شرعت في الاختلاس والغارة فتغافل الاكل حتى تثب على الطعام، وربما وثبت فاخذت اللقمة من يد الاكل، وهذا كله تعليم لاولادها كيفية طلب المعاش وتحصيلاً لقوتها...))[٩].

الحكايات والطرائف:

أفرد لها كتابة ((زهر الربيع)) بجزئيه، وهذه الحكايات حصلت حقيقة في عصر المؤلف فشاهدها بنفسه أو نقلت إليه، ومنها ما نقله من كتب المتقدمين بأسلوبه الخاص أو نقله حرفيا، وفي مقدمة كتابه المذكور، ذكر سبب تأليفه فقال: ((لما فرغت من اخر مؤلفاتي كتاب مقامات النجاة، وكتاب مسكن الشجون في حكم الفرار من الطاعون نظرت

قول الصادق المصدق: ((أن الارواح تكل كما تكل الابدان، فابتغوا لها ظرائف الحكمة)). وما روى عن أمير المؤمنين أن للقلوب اقبالاً وادباراً، فإذا اقبلت فاقبلوا على النوافل وإذا ادبرت فدعوها. وما روى عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس انه كان إذا فرغ من التدريس ورواية الحديث يقول لتلاميذه: حمضونا حمضونا، فيخوضون عند ذاك في الاخبار والاشعار والطرائف والحكم فاردت أن اضع كتاباً مختصراً يروح الخاطر عند الملال ، ويشحذ الاذهان عند عروض الكلال، متضمناً للظرائف الرقيقة والطرائف الانيقة والاشعار الفائقة والحكم الرائقة والاخبار الغربية والاثار العجيبة، كربيع الابرار للزمخشري والكشكول لبهاء الملة والدين العاملي، وإن كنا قد ذكرنا فصلاً وافياً منه في المجلد الثاني من كتاب الانوار ونبذاً منه في مقامات النجاة وكتاب مسكن الشجون لانها منقسمة على ما فيها من الابواب والفنون وسميناه زهر الربيع لما فيه من المقال البديع، ورتبناه على فصول وابواب وحررنا فيه كثيراً من فنون الاداب)).

ومن الطرائف التي وردت في هذا الكتاب: ((اخبرني من اثق به ان رجلاً من اهل جيلان امسى عليه الليل وضاف عند رجل منهم، فلما جلس عنده قليلاً قال له صاحب الدار: أن كان عندك شيء من المال فحله من حزامك واودعه زوجتي إلى غد لعلك تخرج ليلاً لقضاء الحاجة، ونخاف عليك من ملاقاة اللصوص، فحل هميانه وكان فيه اربعمائة محمدية، فلما وضعه عند المرأة خرج لقضاء الحاجة فلما اقبل سمع الرجل يقول لإمرأته: انا نريد نزوج ولدنا فلانا، وكان المانع الخرج، فهلمي ان نقتل هذا الرجل وناخذ هذه الدراهم لزواج الولد، فاتفقا على ذلك، فعمدا إلى بيت ينام فيه الضيف، وفرشا له فرشاً ووسادة، فلما مضى من الليل مقدار خرج الرجل من ذلك البيت وصعد إلى السطح حذراً من القتل وللنظر إلى ما يصنعون، ثم أن ولده كان عند رجل من الجيران فأتى أهله، فلما وصل إلى بيت الضيافة رأى فرشاً وسراجاً وكان قد اخذه النوم فنام على ذلك الفراش فلما انتصف الليل أتى الرجل زوجته، فارسلا رجلاً من خارج البيت واطفا السراج ودخلا وفي يد كل واحد منهم منجل عريض فتواراه على رأسه حتى مات، فقطعاه في الليل ورموه في بئر لهم وهم يعلمون انه الضيف، فلما طلع الفجر، عمد إلى رئيس تلك المحلة وقال له: امض معي مع جماعة حتى اوقفك على أمر غريب، فأتوا معه إلى باب ذلك الرجل، فطرق الباب وخرج الرجل ورأى الضيف فتعجب، فقال له الضيف: اعطني

دراهمي، فدخل على زوجته وقال: أن الذي قتلناه ليلاً جاء هذا الوقت، ولا أظنه إلا من الجن، فارخجي له دراهمه، فلما قبضها حكى الحكاية كلها لرئيس المحلة فعمدوا إلى البئر واخرجوا قطع المقتول، وإذا هو ولدهم الذي عزما على زواجه من تلك الدراهم، ومن حفر بئراً لاخيه اوقعه الله فيه...))[١٠].

ومن طرائفه: ((اجتمع محدث ونصراني في سفنية فصب النصراني من زق كان معه وشرب، ثم ناولها المحدث فتناولها من غير فكر ومبالاة، فقال: النصراني انما هي خمر، قال: من اين علمت ذلك؟ قال: اشتراها غلامي من يهودي، فشربها المحدث على عجل وقال للنصراني، ما رأيت احمق منك: نحن اصحاب الحديث نتكلم في مثل سفيان وعيينه ويزيد بن هارون، أَفنصدق نصرانياً عن غلامه عن يهودي؟ والله ما شربتها إلا لضعف الاسناد...))[١١].

مؤلفاته:

زادت مؤلفاته على ثلاثين مؤلف معضمها ما زال غير مطبوع منها [١٢]:

١- شرح عوالي اللئالئ.
٢- الأنوار النعمانية.
٣- نوادر الاخبار (مجلدتان).
٤- رياض الابرار.
٥- انيس الفريد.
٦- لوامع الانوار.
٧- منبع الحياة في اعتبار قول المجتهدين من الاموات.
٨- مقامات النجاة.
٩- عقود المرجان في حواشي القرآن.
١٠- الهداية في علم الفقه.
١١- مسكن الشجون في وجوب الفرار من الطاعون.
١٢- مفتاح اللبيب في شرح تهذيب النحو للبهائي.
١٣- زهر الربيع. (مجلدتان).
١٤- حاشية على شرح الجامي في علم النحو.

١٥- شرح مغنى اللبيب.

١٦- النور المبين في قصص الانبياء والمرسلين.

١٧- رسالة منتهى الطلب في النحو.

١٨- شرح كافية ابن الحاجب.

١٩- شرح توحيد الصدوق.

٢٠- شرح روضة الكافي.

٢١- حواشي نهج البلاغة.

٢٢- حواشي شرح ابن ابي الحديد.

٢٣- حاشية امل الآمل.

٢٤- حاشية نقد الرجال.

٢٥- الفوائد النعمانية.

٢٦- غاية المرام في شرح التهذيب.

٢٧- كشف الاسرار في شرح الاستبصار.

الخاتمة

في الصفحات المتقدمة طاقة خلاقة نشأت وتعلمت وابدعت وانتجت في عصر وبيئة يكون الخلق والابداع من عالم الاحلام لما تراكم فيها من التلف والضعف وتنوعت وتعددت فيها العقبات والمعوقات التي حالت بينها وبين سبل التطور والازهار الحضاري والفكري ومع اشتداد الازمات وترادف النكسات برزت بعض المشاعل الوضاءة لتمنح الفكر العربي والاسلامي روح الديمومة والبقاء والمواصلة ولو في اضواء خافته لكي لا تتحول الحياة العربية والاسلامية إلى عدم.

فكان العلامة الاديب نعمة الله الجزائري احد الافذاذ الذين ساهموا في مد حلقات التواصل الفكري والثقافي والادبي في التراث العربي والاسلامي في عصره والعصور التي سبقته للأرتباط بعد ذلك بالعصر الحديث.

هيهات أن يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

كان من مبدأ نشوئه إلى آخر عمره مولعاً بطلب العلم ونشره وترويجه كدوداً لا يفتر عنه ولا يمل، كان في اسفاره يستصحب ما يقدر عليه من الكتب، فإذا نزلت القافلة

وضعها واشتغل بها إلى وقت الرحيل، وربما يأخذ الكتاب بيده يطالع فيه وهو راكب في المسير وكان من شدة ولعه في العلم والمعرفة قد ساح في كثير من البقاع وهو لم يـزل صبياً، وواجه اصنافاً من المشقات والمصائب في سبيل التحصيل حتى بلغ فيه الحال أنـه لم يجد ما يسد به رمقه او يضيء فيه سراجه للمطالعة.. وكان يواجـه الحيـاة بتصـميم عجيب وارادة عالية وعزم لا يفل، دؤوب مثابر، يزداد تعلقاً وافتناناً في كتبه، فنبغ فـي كثير من العلوم والفنون، وصنف في الحديث والتفسير والمنطق والفقـه والنحـو والادب ومعظم مؤلفاته نافعة للناس لانها تمس حالهم وتعالج سلوكهم وتزرع فيهم حب الفضـيلة والخير.

الهوامش :

(١) جغرافية العراق: ص٧- ٢٢. واهوار جنوب العراق ص٦- ٢٠. ومعجم البلدان: ١/٤٥.

(٢) الانوار النعمانية ٤/٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه ٤/٣٢٥.

(٤) المصدر نفسه ٤/٣١٥.

(٥) المصدر نفسه ٤/٣١٨.

(٦) زهر الربيع ١/١٤٠.

(٧) الانوار النعمانية ٣/١٩- ٢١.

(٨) المصدر نفسه ٣/١٩- ٢١.

(٩) زهر الربيع ١/١٣٤- ١٣٥.

(١٠) المصدر نفسه ٢/٢١٨- ٢١٩.

(١١) المصدر نفسه ٢/٢٠٥.

(١٢) اعيان الشعية: ٥٠/٢٨٥. والانوار النعمانية: المقدمة: ز، ص.

المصادر والمراجع

١- الاجازة الكبير: عبد الله التستري، مخطوطة في دار المخطوطات العراقية رقم ١١٢/٧٦.
٢- اعيان الشيعة: محسن العاملي/ ط١/ صيدا.
٣- الانوار النعمانية/ نعمة الله الجزائري/ ط١/ تبريز.
٤- اهوار جنوب العراق/ عامر حسك- بغداد/ ١٩٧٩.
٥- جغرافية العراق/ جاسم محمد/ الملف ط بغداد ١٩٧٩.
٦- روضات الجنات من أحوال العلماء السادات/ محمد باقر الخونساري/ ط/ طهران/ ١٣٩٠هـ.
٧- زهر الربيع/ نعمة الله الجزائري ط/ النجف/ ١٩٥٤.
٨- كنز الاديب/ احمد بن درويش علي البغدادي مخطوطة دار المخطوطات العراقية رقم ١٤٣٢٢.
٩- الكنى والالقاب/ عباس القمي ط/ صيدا ١٣٨٥هـ.